التأويل والمعنى القرآني من خلال تفسير الطبري
مقاربة معرفية لغوية

الرحموني بومنقاش
أستاذ محاضر - قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة محمد لمين دباغين سطيف ٢ - الجزائر
boumengach@gmail.com

Interpretation and Qur’anic Meaning through al-Tabari’s interpretation - a linguistic cognitive approach

Boumengache rahmouni
Lecturer professor , mohmed lamine dabaguine Setif 2 university , Algeria

الملخص:

تحاول هذه الورقة تتبع المعنى، تشكلا وجريانا، في القرآن الكريم من خلال فهم المفسرين له، فقد كان المعنى بوصفه قضية معرفية شائكة محورا هاما من محاور الفكر العربي القديم، فهو ذو صلة بالبحث في إعجاز القرآن الكريم وبالبحث في قضايا المجاز، وقد اهتم به الفلاسفة والأصوليون والبلاغيون والمفسرون على حد سواء، ويمكننا القول مع الجابري بأن:" المشكلة الإبستيمولوجية الرئيسية في النظام المعرفي البياني، المشكلة التي أسست هذا النظام، أو على الأقل بلورته وبقيت تغذيه منذ عصر التدوين إلى اليوم، هي مشكلة الزوج: اللفظ/ المعنى"(١)، فلم يعد المعنى هو المفهوم البسيط المستخلص من استذكار العلاقة بين الاسم والمسمى، فاللفظ ما هو إلا بداية رسمية في طريق إمساك المعنى المركب أو المجرد، وهكذا يصبح المعنى في جانب من جوانبه بحثا في العلاقة الكائنة بين نظام الخطاب ونظام العقل، و لا يمكن نيله إلا على سبيل الاستدلال والكلام على حد تعبير الجابري، فالسكاكي البلاغي واللساني العربي بمماثلته بين الاستدلالين وإرجاعهما إلى ذهنية واحدة عمل على الكشف عن الآليات الذهنية المتحكمة في انتاج المعنى لدى العرب(٢).

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، عصر التدوين، التأويل والمعنى القرآني، محمد بن جرير الطبري، تفسير جامع البيان، مقاربة معرفية لغوية.

Abstract:-

The meaning was an important knowledge issue of the ancient Arab thought hubs. He is relevant to researching the miracle of the Holy Qur'an and researching the issues of Al-Majaz, and has taken place by philosophers, fundamentalists and communities and interpreters. Cognitive graph, the problem that established this system, or at least its crystallization has been killed since the humility of the blogging to today, is the problem of husband: Meaning \"The meaning is the simple concept from the recklessness of the relationship between the name and name. Constipation of the composite or abstract meaning, and so on by the meaning of its aspects in the relationship between the speech system and the system of mind, and can only be removed only for inference and speech by the expression of Jabri , Puljaki and the Arab Talaki in his similarity between the inference and return to one mental action to disclose the mental mechanisms in the production of the Arab meaning.

Key words: The Holy Quran, Age of Blogging, Interpretation and Meaning Quranic, Mohammed bin Jarir Al Tabari, Interpretation of Jamie El bayan, the approach of a language knowledge.

المقدمة:

لقد شكلت محاولات فهم المعنى القرآني قاعدة أصيلة في طرق باب الدلالة والمعنى، فقد جاءت شعريات الدرس العربي مقرونة بالبحث في الإعجاز الدلالي والبلاغي للنص القرآني، ومن ثمة القول بأن" نظرية العرب الشعرية سليلة فلسفتهم في فهم المعنى المرتبط لديهم بالنص القرآني. هذا النص الذي تفاعلوا معه فهما وإفهاما بدءا بالرسول وصحابته والتابعين ووصولا إلى أشهر المفسرين"(٣)، وهو الترابط المشكل للمعالجة البلاغية العربية للمعنى والذي ظل يمد المعرفة بالمادة العلمية التي تفسر الظواهر الخطابية.

إن قيمة دراسة المعنى في خطاب التفسير كما في النص القرآني لا يقترن بأثره في الدراسات اللغوية التراثية فحسب، بل كونه خطاب تتعدد فيه إمكانات التأويل ويفسح فيه هامش البحث عن الحقيقة، وهو ما يناسب القراءة التداولية للخطاب، أي إن:" المعنى في مقام بحثنا المخصوص تنهض بتجسيمه تداوليا كتب تفسير القرآن من جهة كونها إمكانات تأويلية وجوازات تفسيرية للحقيقة كما خطها راسمها في اللوح المحفوظ تدوينا جوهريا وتأصيلا لدنيا وهذا الأمر ينتج عنه كون القرآن يمثل المعنى الأصلي صيغت جوازاته وركبت مقاصده أبغاضا أو كلولا حسب عقائد المعتبرين المذهبية"(٤).

ثانياً: من النص إلى المعنى في خطاب ابن جرير:

إن العلاقة القائمة بين اللغة والمعنى واختلاف معاني القرآن عن معاني سائر الكلام هي النقطة التي جعلها إمام المفسرين أول باب في تفسيره، أي باب "القول في بيان معاني آي القرآن ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكلام"، وهو الباب الذي علق عليه في المقدمة بقوله" وأول ما نبدأ به من القيل في ذلك الإبانة عن الأسباب التي بها اولى وتقديمها قبل ما عداها أحرى"، أي أن باب المعنى أولى تقديما عما سواه، ثم في الباب نفسه يبدأ بتبيان التداولية و المنفعية المرجوة من اللغة فيقول:" إن من أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده، وجسيم منته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان الذي عن ضمائرهم يبينون..... وإياه به يسبحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون، وبه بينهم يتحاورون، فيتعارفون ويتعاملون"(٥)، إن وظيفة اللغة عند الطبري وظيفة مركبة من التوصل بها إلى الحاجة والتحاور والتعارف والتعامل بالإضافة إلى

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

التسبيح والتقديس، ولعل ذكر التحاور والتعارف وتحقيق الحاجة مفاهيم حديثة في وظائف اللغة، وبالتالي أمكننا القول بأن تفسيره" تجاوز المستوى العادي لفهم المعنى القرآني المرتبط بنشأة التفسير إلى مستوى آخر موصول بمرحلة نضج فيها التفسير وخرج عن نهج البحث العفوي: Méthod de recherche spontanée إلى نهج البحث العالم Méthod de recherche savante "(٦).

وأصل المسألة عند الإمام أن يكون المعنى منطوقا وحرفيا ذلك أن معنى القرآن موافق لمعنى العربية وبيانه موافق لبيانها، يقول الطبري:" فسفه أحلامهم، وقصر بعقولهم، وتبرأ من دينهم، ودعا جميعهم إلى اتباعه والقبول منه والتصديق به، والإقرار بأنه رسول إليهم من ربهم. وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته، وحجته على حقيقة نبوته - ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان، بلسان مثل ألسنتهم، ومنطق موافقة معانيه معاني منطقهم"(٧)، وهذه الحرفية هي المعاني المعجمية المقررة اللسان العربي، من حيث وجوه استعمال هذا اللسان وخصائصه التي ينفرد بها عن باقي الألسن حيث نجد الطبري يفسر موافقة معاني القرآن لمنطق العرب بقوله:" فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهرة لظاهرة كلامها ملائما، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان، بما قد تقدم وصفناه. فإذا كان ذلك كذلك، فبين - إذ كان موجودا في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كل ذلك له نظيرا، وله مثلا وشبيها"(٨)، وهذا النص الذي يبين فلسفة المعنى عند ابن جرير الطبري. يفسر فيه كيف أن معاني القرآن ليس بدعا لغويا بل أن معانيه موجودة في كلام العرب من خلال ظواهر العربية المعروفة من الإيجاز والإختصار، والإجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار وغيرها.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

إن استنطاق معنى النص عند ابن جرير الطبري من داخله وبلفظه يتطلب المعرفة بالرمز والإحالة، الناطق والمنطوق، الرواية والدراية، النقل والعقل. ولذلك يعتبر علاقة المعنى بالبيان علاقة فاضل بمفضول، يقول الإمام:" فإذا كان كذلك - وكان المعنى الذي باين الفاضل المفضول في ذلك، فصار به فاضلا والآخر مفضولا، هو ما وصفنا من فضل إبانة ذي البيان، عما قصر عنه المستعجم اللسان، وكان ذلك مختلف الأقدار، متفاوت الغايات والنهايات - فلا شك أن أعلى منازل البيان درجة، وأسنى مراتبه مرتبة، أبلغه في حاجة المبين عن نفسه، وأبينه عن مراد قائله، وأقرب من فهم سامعه"(٩).

ثالثاً: التأويل بديلا للمعنى في القرآن من خلال فهم الطبري:

المتتبع للفظ التأويل في موسوعة ابن جرير التفسيرية يجدها ذات هدف علمي دقيق، فاختياره لكلمة التأويل والتزامه بها عند تفسير كل آية بقوله " القول في تأويل قوله تعالى "- وهو الخبير العارف بمدلولات المفردات في القرآن الكريم - لم يكن عن غفلة منه عن المعنى القرآني الذي جرى استعماله فيه، مما يدل على أن الإمام يفرق بين المعنى والتأويل وأن وضع كلمة التأويل بدل المعنى له غايات تتكشف بكل فهم تداولي للتفسير، فلم يكن تفسيره أثري خالص ولا عقلي مجرد، بل كان مزيجا من التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي وهذا مدعاة لأن يجعل التأويل لفظ بديل للمعنى، فضلا عن موقفه من المأثور وهو موقف الناقد الممحص، ثم إن الرأي والتصرف في التأويل يكون على ما تقتضيه الأوضاع البيانية للنص القرآني من جهة أخرى مما يطلق عليه اتساع كلام العرب(١٠).

ولعنا نجد الإمام يجعل التأويل بديلا لكلمة المعنى عن فهم ووعي ودراية، فهو يتجاوز بالمصطلح معناه المألوف أي الخروج باللفظ من دلالته الطبيعية إلى دلالات مجازية، وهذا ما يجعلنا نقول أن المغنى عند الطبري هو ضرب من التأويل التداولي، فهذا الأخير ليس إلا "مجرد إظهار لمعنى خفي وفق قواعد وضوابط صرفية ونحوية ومعجمية موجودة بالكامل خارج ذات المفسر مع إبقاء الكلام على أصله، بينما تلعب ذات المؤول وآراؤه الشخصية وكفاياته الخارج - لسانية دورا هاما في عملية التأويل"(١١)، وبيان ذلك أننا نجد الطبري يعدد المعنى في التأويل التداولي على النحو الآتي:

١- التأويل إحالة لمعنى ظاهر:

التأويل لفظ يحمل معنى الإحالة في استعمال القرآن الكريم، فيحتاج فهم الآية وتفسيرها إلى إظهار معاني الكلمات أو الجمل أو الآيات في مجالها المعجمي، لا بصرف معانيها المتبادرة إلى معان أخر وجعلها تتجاوز هذا المجال المعجمي، نرى هذا في تفسير ابن جرير لقوله تعالى:" فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول وإن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرا وأحسن تأويلا"(١٢) فكلمة تأويل هنا تعني الإحالة على الله تعالى في قرآنه المجيد وإلى الرسول ﷺ في سنته، وهذا ما يستلزم عنه الألفة وترك التنازع والفرقة أي أن العاقبة (أحسن تأويلا) ستكون حسنة، وهذا مؤدى قول الإمام الطبري:" قال أبو جعفر يعني جل ثناؤه فرد ما تنازعتم فيه من شيء إلى الله والرسول خير لكم عند الله في معادكم وأصلح لكم في دنياكم لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة وترك التنازع والفرقة وأحسن تأويلا يعني وأحمد موئلا وأجمل عاقبة"(١٣)، فكما تعنى جملة" أحسن تأويلا" أجمل عاقبة ومردا فهي تعنى الإحالة الحرفية المعجمية بالنص القرآني وسنة الرسول ﷺ، فحسن العاقبة نتيجة طبيعية للإحالة على الكتاب والسنة، وذلك هو المعنى نفسه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(١٤) فخير العاقبة وحسن المرد إحالة على اوفو الكيل وزنوا بالقسطاس المستقيم في معناه الحرفي المعجمي الدقيق، يقول الإمام الطبري" وأحسن مردودا، وأولى إليه فعلكم ذلك، لأن الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيحسن لكم عليه الجزاء "(١٥)، إذن التأويل هنا ربط بين آخر الجملة في معناها المتبادر(العاقبة والمرد) وما قبله في حرفيته ومعجميته.

٢- التأويل ليس احتمال معنى النص:

يحتمل اللفظ في تركيبه اللغوي معنى متعدد يتحكم في تعدده سياقه في النص وظروف تداوله، ومن ثمة يحتمل اللفظ كما النص احتمالات متعددة في فهم المعنى الدقيق له، وهذا ما يعبر عنه باحتملات المعنى فيكون" التأويل عملية انتخابية يقوم المؤول بمقتضاها باختيار معنى من بين المعاني المرشحة التي يتحملها الملفوظ أو(النص عموما)، ويكون انتخاب هذا المعنى أو ذاك بحسب درجة قدرته على جعل الملفوظ أكثر ملاءمة لسياقه المقالي والمقامي"(١٦).

وهذا ما أدركه ابن جرير عندما استنكر الفهوم البعيدة في النص تأويلا ولو كانت من

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

محتملات النص. هذا ما نجده معبرا عنه في تفسير قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾(١٧) يقول ابن جرير: " فالذي هو أولى بتأويل الآية، ما دل عليه الظاهر دون ما احتمله الباطن الذي لا دلالة له على أنه المعنى بها، والذي قال السدي في ذلك، وإن كان مذهبا تحتمله الآية، فإنه منزع بعيد، ولا أثر - بأن ذلك كما ذكر - تقوم به حجة فيسلم لها، ولا دلالة في ظاهر الآية أنه المراد بها. فإن كان الأمر كذلك، لم يُحَل ظاهر التنزيل إلى باطن التأويل"(١٨). ونعثر في هامش الجزء الثاني من موسوعة ابن جرير التفسيرية على معنى الظاهر وعلى تقييد لدلالة المصطلح بقوله "الظاهر: هو ما تعرفه العرب من كلامها، والباطن: ما يأتي بالاستنباط من الظاهر، وإعمال الرأي فيه، على طريق العرب في بيانها"(١٩).

ثم يلتزم الإمام بهذا الخط في أثناء تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(٢٠) بقوله: "وقد قال بعضهم " وإنها" بمعنى إن إجابة محمد ﷺ. ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكر، فتجعل " الهاء والألف" كناية عنه، وغير جائز تركُ الظاهر المفهوم من الكلام، إلى باطن لا دلالة على صحته"(٢١)، وكأن الإمام يقول بمقولة التفريق بين المعنى الظاهري في انتمائه لعلم الدلالة ووضعه في البيان العربي الباطني بحيث إن " اللغة تختلف في وجودها الكامن في أذهان أفراد البيئة اللغوية عنه بعد استخدامها في نطاق موقف معين وفي سياق معين"(٢٢).

إن إجراء المطلق على إطلاقه في التفسير لابد له من أمر يوجبه ودليل يقويه، وإلا كان الكلام في القرآن تأويلا فاسدا، بينما الالتزام بالاحتمال الأقرب والابتعاد عن الفهوم البعيدة وإن كانت من محتملات النص هو التأويل الصحيح الذي يرتضيه علم التفسير، وفي هذا المعنى يقول الإمام الطبري ما نصه:" إنَّ بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم - من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يَرَون أنَّ حكم الله، فيما أمر ونهى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ - على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يَخُصَّ بعضَ ما عمَّه ظاهرُ التنزيل، كتابٌ من الله أو رسولُ الله، وأن التنزيل أو الرسول، إن خصَّ بعضَ ما عمَّه ظاهر التنزيل بحكمٍ خلاف ما دل عليه الظاهر، فالمخصوص من ذلك خارجٌ من حكم الآية التي عَمَّت ذلك الجنس خاصة، وسائرُ حُكمِ الآية على العموم"(٢٣). إن التأويل بهذا الطرح هو معرفة الخصوص في عموم ظاهر التنزيل والخصوص في ما دلّ عليه الظاهر أو خصوص الباطن.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

على أن الخصوص والعموم ليس بدعا على الإمام فحسب بل هي مسألة مجمع عليها، إنه الإجماع الذي يعزز صحة فرضية ابن جرير في المعنى والتأويل ودلالة الآيات حيث يقول:" ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك - مع الرواية التي رويناها عن الرسول ﷺ بالموافقة لقولهم - دليل واضح على صحة قولنا في العموم والخصوص، وأنَّ أحكام الله جل ثناؤه في آي كتابه ـ فيما أمر ونهى ـ على العموم، ما لم يَخُصَّ ذلك ما يجب التسليم له، وأنه إذا خص منه شيء، فالمخصوص منه خارج حكمه من الآية العامة الظاهر، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام، ومؤيد حقيقة ما قلنا في ذلك، شاهد عدل على فساد قول من خالف قولنا فيه"(٢٤).

٣ـ التأويل من مقتضيات المنطق اللغوي:

لقد حكم ابن جرير في تفسيره المنطق اللغوي ما اقتضى عنه عدم جواز التأويل "بتخصيص العام، بخصوص السبب، ولا تقييد المطلق به كذلك " أو ما يعرف فقهيا بأن"خصوص السبب لا يقضي على عموم اللفظ". ولعله المنطلق الذي حاول به ابن جرير الطبري تأسيس تأويله ووضعه على قواعد علمية ضابطة لتفسيره وفهمه، نلاحظ هذا حين يفسر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٢٥)" حيث يقول بالصريح:" "والصواب من القول عندنا: أنه عَنى بها كلَّ من عمل سوءاً أو ظلم نفسه، وإن كانت نزلت في أمر الخائنين والمجادلين عنهم الذين ذكر الله أمرهم في الآيات قبلها."(٢٦).

إن سبب نزول الآية الكريمة هو خصوص السبب، من أمر المجادلين والخائنين، وقد بينته الآيات التي سبقت هذه الآية كما يقول ابن جرير، إلا أن سبب النزول لا يجعل الآية الكريمة خاصة بهؤلاء الخائنين والمجادلين، بل يشمل حكم الآية كل من عمل سوءاً، لأن لفظ "من" الوارد في بداية الآية الكريمة لفظ عام، وكذلك فعل الإمام في أثناء اللفظ المطلق غير المقيد الدلالة، فكلمة الدم وتحريمه مثلا ورد في مواقع عدة من القرآن، من مثل قوله تعالى:" إنما حَرَّم عليكم الميتة، والدم" سورة البقرة ١٧٣، وفي قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ سورة المائدة ٣ / ـ وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ سورة النحل / ١١٥.

والكلمة في هذه الآيات مطلقة غير مقيدة، وقد قيدت الكلمة في سورة الأنعام في قوله

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾(٢٧)، فحصرت الآية الدم في الدم المراق والمسال فقط، دون ما بقي من الدم في اللحم، ويشتغل التأويل تنسيقا بين هذه الآيات المطلقة والمقيدة، منذ الصحابةُ - رضي الله عنهم - والتابعين ومن تبعهم، ومن هؤلاء عكرمة حيث روى عنه الطبري، يقول ما نصه"وفي اشتراطه جل ثناؤه في الدم عند إعلامه عباده بتحريمه أياه، المسفوح منه دون غيره، الدليل الواضح أن ما لم يكن منه مسفوحا، فحلال غير نجس، وذلك كالذي: حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة:" أو دما مسفوحا" قال: لولا هذه الآية ـ لَتَتَبَّعَ المسلمون من العروق ما تتبعت اليهود"(٢٨)،أي أن دم لحوم الذبائح لا بأس بأكله، فتعيَّن أن فهم اللفظ المطلق "الدم" يحتاج إلى تنسيق بين ظواهر النصوص، وهذا هو تقييد المطلق بسبب وبنص، وتعين أن المقصود بالدم هو الدم المهراق المسال.

ومن قضايا التأويل وفق مقتضيات منطق اللغة أن جعل إمام المفسرين التأويل محكوم بما يدل أولُ الكلام عن آخره، وآخره عن أوَّله و ربطا لأجزاء النص بعضها ببعض وتنسيقا لمعنى الآية مع النص القرآني ككل. وهذه تقاليد وأعراف تميز بها اللسان العربي قبل ابن جرير الطبري وهو ما أشار إليه الشافعي في رسالته بقوله: "وتبتدئ ـ أي العرب ـ الشيء من كلامها، يُبين أولُ لفظها فيه، عن آخره، وتبتدئ الشيء يُبين آخرُ لفظها منه عن أوَّله"(٢٩) أو ما يسميه الإمام الزركشي في كتابه البرهان "التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمُقتضَب من قوة الشرع"(٣٠).

ولننظر مثلا إلى تفسير قوله تعالى "قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خيرٌ لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً"(٣١)حيث يقول الطبري في تفسير الآية:"يعني بقوله جل ثناؤه "قل متاع الدنيا قليل" قل يا محمد، لهؤلاء القوم الذين قالوا "ربنا لم كتبتَ علينا القتال، لولا أخَّرتَنا إلى أجل قريب" - عيشُكم في الدنيا وتمتعكم بها قليلٌ لأنها فانية وما فيها فانٍ، "والآخرة خير" أي نعيم الآخرة خيرٌ، لأنها باقية ونعيمها باق دائم، وإنما قيل:" والآخرة خير" بالذي ذكرت به، على المعنى المراد منه " لمن اتقى" يعني: لمن اتقى الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه فأطاعه في كل ذلك،" ولا تظلمون فتيلا" يعني ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلا"(٣٢).

لقد استعمل الطبري كلمة نعيم وهي غير موجودة في الآية في قوله" والآخرة خير أي نعيم الآخرة خير" تأويلا وبحثا عن الانسجام في المعنى كما ربط أجزاء الآية وكلماتها بعضها ببعض بما يدل أولها عن آخرها وآخرها عن أولها، ذلك أن هذه الإضافة يقتضيها معنى النص وحاجة خطابه للترابط والإقناع، ولذلك قال الإمام: وإنما قيل والآخرة خيرٌ، ومعنى الكلام ما وصفتُ من أنه معنيٌّ بها نعيمُها، لدلالة ذكر الآخرة بالذي ذُكرت به، على المعنى المراد منه.وقد ذكر "الآخرة" في مقابل متاع الدنيا القليل لفنائها، أو وصف الآخرة بنعيمها الباقي و بدوامها في مقابل متاع الدنيا القليل الفاني، فكان أول الكلام دالاً على آخره وآخره دالاً على أوله، إظهاراً للمعنى المراد من النص القرآني عن طريق الاقتضاء العقلي، ومنطق اللغة العربية.

وكذلك فعل الإمام فيما يتعلق بتأثير أول الكلام على تحديد معنى الجملة اللاحقة حين فسر قوله تعالى "وللرجالِ عليهنَّ درجة"(٣٣) بأن الدرجة هي درجة الإحسان والتسامح وهي درجة تقتضيها كلمة الرجال أو الرجولة فهي كلمة محكومة بالنص يبين أول الكلام آخره وآخر الكلام أوله، أولها الطبري وفق منطق اللغة ومقتضياتها، عائدا بمعناها إلى فهم ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن يقول الطبري: " وأولى الأقوال بتأويل الآية، ما قاله ابن عباس، وهو أنَّ "الدرجة" التي ذكر الله تعالى ذكره في هذا الموضع، الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وأغضاؤه لها عنه، وأداءُ كلٍّ الواجب لها عليه"(٣٤).

ثم في تبيان ترابط أول الكلام بآخره وآخر الكلام بأوله، وتدليلا على صحة تفسيره وصواب تأويله في معنى النص: "وذلك إن الله تعالى ذكره، قال: "وللرجال عليهن درجة" عقيب قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ..... فقال تعالى ذكره ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بتفضلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: "ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها" لأن الله تعالى ذكره يقول" وللرجال عليهن درجة"(٣٥)، وهذا يدل على أن أول الكلام: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" قد أقر قاعدة في الحقوق والواجبات، ثم أعقب ذلك ما ينبغي أن يكون فضلا من الرجال ودرجة منهم على النساء وهو الإحسان والعفو الذي يتفضل به الرجال عليهن. يرى الإمام أن الصيغة قد تحولت في "وللرجال عليهنَّ درجة" من الإخبار إلى الإنشاء

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

المتضمِّن معنى الأمر أو الندب، تأكيدا على انسجام المعنى واتساقه وترابط أوله وآخره يقول إمام المفسرين: "وهذا القول من الله تعالى ذكره، وإن كان ظاهره الخبر، فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل، ليكون لهم عليهن فضل درجة"(٣٦).

وفي سياق منطق اللغة ومقتضياتها يعلل الإمام إحدى الإضافات التي أضافها في تفسيره لآية من الآيات بانسجام المعنى والنص وذلك حين فسر الآية الكريمة" وليعلم الذي آمنوا، ويتخَّذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين"(٣٧)، حيث أول الآية بإضافة جملة " من الذين نافقوا" لمعنى الآية ليصبح معناها على النحو"وليعلم الله الذين آمنوا ـ أيها القوم ـ من الذين نافقوا منكم"،ثم يعلل الإمام تأويله لمنطوق الآية بتلك الإضافة ببحثه عن انسجام المعنى وفق منهجه في الدلالة من أن أول الكلام يفسر آخره وآخره يفسر أوله مستندا في ذلك إلى تعبير القرآن الكريم نفسه في سورة الكهف، إذ يقول الإمام: "فتأويل الكلام: وليعلم الله الذين آمنوا منكم أيها القوم من الذين نافقوا منكم، نداول بين الناس، فاستغنى بقوله: "من الذين نافقوا" لدلالة الكلام عليه. إذ كان في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تأويل "أي" على ما وصفنا، فكأنه قيل وليعلم الله أيكم المؤمن كما قال جل ثناؤه" لنعلم أي الحزبين أحصى"(٣٨). هذه الزيادة إذن غرضها إظهار المعنى الكامل للآية وبحثا عن اتساق الدلالة اجتهادا من المفسر للإمام، فهذه الإضافات ليست زيادة حقيقية ولا تصرف وتحريف لألفاظ النص بل هي إظهار لمعنى النص باستخدام كلمات استغنى المرسل عنها، وإظهارا لإيجاز النص واختصاره غير المخل بالمعنى.

وقد راعى الإمام الطبري في تفسيره أثر السياق في تشكيل المعنى القرآني – وسنفرد فصلا مستقلا للسياق في تفسير الطبري – تحقيقاً لاتساق معاني الآي، بل إنه وازن بين اللفظ في سياقه القرآني ونظيره في مواضع أخرى من كتاب الله وسنة رسوله، وهذا سعيا منه للتأويل الصحيح والمعنى المراد من الشارع الحكيم. ولنا أن نمثل لذلك بتفسيره لكلمة ظن في القرآن الكريم إذ أورد الإمام في تفسيره أن معناها هو العلم واليقين رواية عن الإمام مجاهد(٣٩) ـ تلميذ ابن عباس ـ رضي الله عنه، ولكنه لم يغفل سياقه الكلمة في القرآن الكريم، فقد قيد معنى الظن بالعلم واليقين مالم يرد الذم والنهي في سياق الآيات الكريمة بل ينبغي أنْ يُقيَّد بما لم يرد الذمُّ فيه والنهيُ عنه، من مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام/١١٦، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يونس/٣٦، وقوله تعالى

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ الفتح/١٢، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات/١٢، وقوله تعالى ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ النجم /٢٣، وقوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ النجم/٢٨.

والظن في هذه الآيات غير العلم لأن سياق الآيات والقرائن اللفظية تدل على ذلك، فهو مقرون فيها بالخرص والسوء والهوى، وأما ما جاء، في الآية الكريمة "إن ظَنَّا أن يُقيما حدودَ الله"[٤٠]، فهو يعني اليقين والعلم بمعنى إنْ أيقَنا أنَّ نكاحهما على غير مخادعة، أما الطبري فإنه يوجه نقدا للقائلين بأن الظن هنا بمعنى اليقين لعدم ملائمة سياق الآية لهذا المعنى، يقول الطبري: "وكان مجاهد بقول في تأويل قوله تعالى: "إن ظنا أن يقيما حدود الله"ما حدثني به محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم عن عيسى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال:" إن ظنا أن يقيما حدود الله" إن ظنا أن نكاحهما غير دُلسة...... قال أبو جعفر: وقد وجَّه بعضُ أهل التأويل قوله: "إنْ ظَنَّا" إلى أنه بمعنى "إنْ أيقَنا"، وذلك ما لا وجه له، لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلا الله تعالى ذكره، فإذا كان ذلك كذلك، فما المعنى الذي به يوقن الرجل والمرأة أنهما إذا تراجعا أقاما حدود الله؟ ولكن معنى ذلك، كما قال تعالى ذكره: "إنْ ظَنَّا" بمعنى: طَمِعاً بذلك ورَجَوَاه"[٤١]، وهكذا نجد الإمام قد وجه المعنى في ضوء ما تقول به التداولية اليوم من ضرورة فهم المعنى في إطار المعنى العام للجملة أو النص أو حتى السياق غير الملفوظ أي السلوك المصاحب لفعل التلفظ، أما "التأويل" الذي إرتضاه لمعنى كلمة الظن في الآية فهو الرجاء، لأن العلم يناقضه مدلوله بما سيكون عليه الحال مستقبلا.

والحال هذه فإن الطبري لا يكتفي بقراءة المفردة واللفظ بربطها بسياق الآية التي وردت فيها، بل نراه يربط بين معاني الآيات ويوضح القرآن بالقرآن أو ما يعرف في علوم التفسير بتبيان المفهوم بالمفهوم أو المنطوق بالمفهوم، حيث إن:" كل منطوق يقدم على المفهوم، بل بعض المفاهيم أقوى دلالة على الأمر من دلالة المنطوق عليه، ألا ترى أن دلالة مفهوم حديث" في الغنم السائمة زكاة" عند من لا يرى الزكاة في المعلوفة أظهر في عدم الزكاة في المعلوفة، من دخولها في عموم منطوق حديث " في أربعين شاة شاة"، لأن المفهوم أخص بها وأقوى دلالة فيها من عموم المنطوق"[٤٢].

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

وهذه صياغة طبرية لمعنى الظن منطوقا ومفهوما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٤٣) حيث يقول ما نصه: "إنْ قال قائل: وكيف أخبر الله جلّ ثناؤه عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة، أنه "يظن" أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك في لقاء الله عندك بالله كافر؟ قيل له إن العرب قد تسمي اليقين "ظنا"، والشك "ظنا"، نظير تسميتهم الظلمة "سدفة"، والضياء "سدفة"، والمغيث "صارخا "،والمستغيث "صارخا"، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمى بها الشيء وضده"(٤٤). نرى ابن جرير يجيب بأن "الظن" في لغة العرب، من أسماء "الأضداد" ويدلل على هذا بشواهد وأبيات شعرية، فيُحمل على أحد معنييه المتضادين بما يتسق مع المعنى العام للآية الكريمة.

ثم إنه لا يكتفي بتحديد المعنى في ضوء التضاد بل يعود بالمفردة إلى مواقع لها في القرآن الكريم، مواقع يرى بأنها أكثر من أن تُحصى، وهي مواقع كان المعنى المفردة فيها هو اليقين، وذلك من قبيل قوله تعالى " ورأى المجرمون النار، فَظَنُّوا أنهم مواقعوها" الكهف/، وقوله تعالى: "إنِّي ظننت أني ملاقٍ حسابِيَه" الحاقة/، وكعادته في استعماله نص غيره لتعزيز رأيه يسرد الطبري روايات عدة لتقرير المعنى الذي حدده لكلمة الظن، وهذا نوع من مراعاة سياق اللفظ في الآية وفي النص بل وفي القرآن كله.

ومن أمثلة فهم معنى اللفظ بوضعه في سياق معنى الجملة تفسيره لقوله تعالى:" وأنهم إليه راجعون"(٤٥)،وهنا فهم الطبري لفظ "الرجوع"بوضعه في معنى الآية التي قبله، فبعد أن ذكر أنه على قولين: بالموت أو يوم القيامة، قال: "وأولى التأويلين بالآية، القولُ الذي قاله أبو العالية: ـ لأن الله تعالى ذكره، قال في الآية التي قبلها "وكيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون ". فأخبر جل ثناؤه أن مرجعهم إليه بعد نشرهم، وإحيائهم من مماتهم وذلك لا شك يوم القيامة، فكذلك تأويل قوله" وأنهم إليه راجعون""(٤٦)، فواضح إذن أن الطبري ربط بين الآيتين لتبيان المعنى المقصود والمراد من لفظ الرجوع وهذا هو عين تفسير القرآن بالقرآن.

ومن قضايا التفسير والتأويل وفق مقتضيات منطق اللغة إقرار الطبري بأن قوانين النحو، إذا طبقت على الجملة أو النص وكان نتيجة التطبيق القول بوجود كلمات زائدة لا معنى لها في القرآن، ضرب بهذه القواعد والقوانين عرض الحائط وترفض لإخلالها ببلاغة

القرآن الكريم، بحيث لا ينفذ نحو اللغة الظاهر إلى الدلالة الباطنية العقلية للنص، وهذا مدعاة للتأويل وفق ما يلائم المعنى الصحيح للنص، حفاظا على بلاغة النص وتقديما له على النحو الظاهر في اللغة. وهذا ما يعرف في التداوليات اليوم بالإعراب التداولي القائم على الربط بين الصلات الدلالية والتداولية والنحوية في الجملة الكلمة والنص، أو هو الإعراب الجامع بين المعاني والنحو والسياق التداولي(٤٧).

وهذا في رأي الطبري توجيه للنحو في إطار المعنى وخادما له أي أن الإعراب تابع للمعنى وليس المعنى هو من يتبع النحو، وقد أجرى هذا التنظير على تفسيره لقوله تعالى "ما منعك ألا تسجدَ إذْ أمرتك"(٤٨). فالمراد من الآية الكرية كما يدل لفظها الظاهر هو التوبيخ والذم واللوم على عدم السجود، يقول الإمام: "فإن قال قائل: أخبرنا عن إبليس، ألَحِقَته الملامةُ على السجود، أم على ترك السجود؟ فإنْ تكُنْ لحقته الملامة على ترك السجود، فكيف قيل له: "ما منعك أن لا تسجد إنْ أمرتك"؟ وإن كان النكير على السجود، فذلك خلاف ما جاء به التنزيل في سائر القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون"(٤٩).

ثم يواصل الإمام الطبري عرضه لرأي النحاة البصرة فيما تعلق بزيادة حرف "لا" في الآية "أن لا تسجد" فهي زائدة ملغاة لا معنى لها، وهذا انتقاص من بلاغة القرآن وقول بوجود كلام زائد لا طائل منه في القرآن الكريم وفي مقابل رأي النحاة البصريين يورد الإمام رأي بعض نحويي الكوفة بأنها غير ملغاة، وأن أن "المنع" مراد به "القول" مجازاً أو تأويلاً، فيكون معنى الآية الكريمة على بهذا الطرح: "من قال لك، أو من أمرك ألا تسجد"، يقول الطبري:" ليست "لا" بحشو في هذا الموضع ولا صلة، ولكن" المنع" ههنا بمعنى " القول" وإنما تأويل الكلام: من قال لك لا تسجد إذ أمرتك بالسجود، ولكن دخل في الكلام" أن"...... وقال بعضهم: معنى "المنع"، الحول بين المرء وما يريده........ فخوطب إبليس بالمنع فقيل له:" ما منعك ألا تسجد" كان معناه كأنه قيل له أي شيء اضطرك إلى أن لا تسجد"(٥٠).

وبعد سرده لآراء القائلين بالزيادة والرافضين لهذا القول، يدلي باجتهاده الخاص كعادته تبيانا لمنهجه في التأويل والتفسير، فيقول مجيبا: "والصواب عندي من القول في ذلك أن يقال: إن في الكلام محذوفا قد كفى دليل الظاهر منه، وهو أن معناه: ما منعك من السجود، فأحوجك ألا تسجد، فترك ذكر "أحوجك"، استغناء بمعرفة السامعين قوله" إلا

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

إبليس لم يكن من الساجدين" أن ذلك معنى الكلام من ذكره......وإنما قلنا إن هذا القول أولى بالصواب، لما قد مضى من دلالتنا قبل على أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له، وأن لكل كلمة معنى صحيحا. فتبين بذلك فساد قول من قال" لا" في الكلام حشو لا معنى لها"(٥١)، فالقول بالحذف عند الطبري يفتقر للدليل الظاهر في اللفظ، وأن المعنى الصحيح هو ترك كلمة أحوجك استغناء بمعرفة السامعين، وهذا ما يعرف اليوم في التداولية بالمعرفة المشتركة بين المتكلم والسامع، ذلك أن المتكلم" لا يذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أن المستمع يحتاج إلى معرفته لتبين الفائدة منه، معتمدا في ذلك على قدرة المستمع في استحضار المحذوف إما لوضوحه أو لقربه وشهرته، فتكون عناية المتكلم بالكلام على حسب حال المخاطب/المستمع من الإدراك"(٥٢).

كما يرفض الطبري أيضا القول بزيادة "لا" في الآية الكريمة، نزولا عند سياق الآية: إلا إبليس لم يكن من الساجدين، فالمنع عن السجود بحث في العلة والسبب، وهذا تلازم بين عدم السجود والسبب في عدم السجود، وهذا مدعاة لدحض دعوى حشو "لا" في الآية الكريمة، وهو استنتاج عقلي بحيث أن الدافع لعدم السجود يستلزم المنع والامتناع عن السجود، فأصالة "لا في الآية الكريمة نتيجة لسياق النص(تداولية) وللمعرفة المشتركة عند السامع ولمعنى الآية(الدلالة) فهي إذن نتيجة إعراب تداولي عند الطبري وهي أيضا نتيجة اجتهاد بالرأي.

ونفس الموقف نقرؤه للطبري فيما يسمى في النحو العربي بالحروف الزائدة، فهو لا يستسيغ إطلاق الزوائد على حروف في القرآن الكريم يتوقف معنى الآيات على هذه الحروف، فالزائد لا قيمة له في الكلام ولا يمكن لكلام الله أن يكون لا قيمة له، نجد هذا بينا حين يفسر الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٥٣)، حيث قال الإمام في هذا الشأن:" زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة: أن تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، وقال ربك، وأن "إذ" من الحروف الزائدة، وأن معناها الحذف......والأمر في ذلك بخلاف ما قال: وذلك أن "إذ" حرف يأتي بمعنى الجزاء، ويدل على مجهول من الوقت. وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى في الكلام"(٥٤)، فلا يجوز القول بزيادة "إذ" لأن هذا الحرف يترتب عن توظيفه في الجملة معنى الجزاء أو معنى

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

الوقت المجهول وما ترتب عنه معنى لا يجوز حذفه لأنه إفسادا لاتساق المعنى والنص.

إن الطبري يرفض أيضا نحو اللغة إذا خالف الرواية أو بخلاف ظاهر التلاوة والنص وإن صحت القاعدة اللغوية في الكلام، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(٥٥)، رد على من زعم بوجود تقدير في الكلام لوجود رواية من أهل التأويل، يقول الطبري:" وذلك خلاف ما جاءت به الرواية من أهل التأويل، وخلاف ظاهر التلاوة، فإن الله جل ثناؤه. أخبر أنه واعد موسى أربعين ليلة، فليس لأحد إحالة ظاهر خبره إلى باطن، بغير برهان دال على صحته"(٥٦).

إن الطبري برفضه للقاعدة النحوية يفسح المجال أمام التأويل والاحتمال، فهو أمام القاعدة النحوية يذكر القراء بوجود احتمال أو أوجه في إعراب المفردة، نجد هذا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾(٥٧)، قال الطبري:" فأما قوله: وتدلوا بها إلى الحكام" فإن فيه وجهين من الإعراب: أحدهما: أن يكون قوله: "وتدلوا" جزما عطفا على قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، أي ولا تدلوا بها إلى الحكام. وقد ذكر أن ذلك في قراءة أبي بتكرير حرف النهي" ولا تدلوا بها إلى الحكام" والآخر منها النصب على الصرف، فيكون معناها حينئذ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وأنتم تدلون بها إلى الحكام والآخر، كما قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم، يعني: لاتنه عن خلق وأنت تأتي مثله، وهو أن يكون في موضع جزم - كما ذكر في قراءة أبى - أحسن منه أن يكون نصبا"(٥٨).

ولعل رفض الطبري لأقوال أهل اللغة في كثير من المسائل يدل على أن التأويل عنده منهج مفكك لصرامة القاعدة النحوية وأن ما جاء في تفسيره من قيم لغوية كان وسيلة للتأويل والتفسير لا هدفا في ذاته، إذ أن " البحوث اللغوية التي عالجها ابن جرير في تفسيره، لم تكن أمرا مقصودا لذاته، وإنما كانت وسيلة للتفسير"(٥٩).

ونخلص إلى أن الإمام الطبري ملك آلية قراءة النص، رفضا لانتمائه المنهجي النحوي (مدرسة الكوفة في النحو)، جامعا بين ما يقره صريح اللفظ بسند نصي آخر، واجتهادا

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

بالرأي والتزاما بالمأثور من نصوص السلف، محافظا على اتساق النص وانسجامه وبلاغة القرآن ونظمه، جاعلا لمفهوم التأويل بدلالته المتعددة فقها للمعنى لا تميعا له وإهدارا لصحيحه، فهو يربط بين التفسير بمعناه المعروف القائم على استنباط الدلالة من المأثور والمنقول، ومن حيث النص والدلالة وظاهر النص، وبين التأويل بوصفه اجتهاد عقلي خادم للتفسير لا مهدم له انطلاقا من معطيات نصية كالسياق ونحو الجملة ودلالة اللفظ عند العرب وغيرها.

إن توجيه الطبري للتأويل خدمة للمعنى وتلافيه للتأويل لأجل التأويل يجعلنا نقر أن تأويله للمعنى تأويل تداولي بامتياز، إذ يقوم:" نموذج التأويل لأجل التواصل أو نموذج التأويل التداولي على مبدأ أساس يقضي بأن يكون للتأويل حد يقف عنده وغاية يصل إليها هي الفهم وإتمام التواصل الجاري بين المرسل والمرسل إليه."(٦٠)، ولما كانت غاية الطبري الفهم وإتمام التواصل الجاري بين القرآن رسالة ربانية وبين المتلقي القارئ لها، توسلا بتأويل محدود وموجه وفق نصية آليات محددة أمكننا أن نطمئن إلى أن ظاهرة المعنى عند الإمام هي تأويل تداولي بمعناه الجديد.

على أن التأويل المحدود الموجه هو تمييع للمعنى وفتحا لآفاقه وتجريدا له من دلالته المعجمية الضيقة، فليس المعنى في تفسير الإمام إلا بديلا من البدائل الكثيرة التي طرحها، كأن يكون المعنى تأويلا بمعناه المعجمي أي إخراجا للفظ من معناه الذي وضع له إلى معنى آخر، أو أن يكون المعنى تفسيرا لكون التأويل تفسير، أو أن يكون المعنى موافقة التفسير لظاهر التنزيل أو أن يكون بحث في احتمال معنى من المعاني التي يطرحها النص أو من معنى جزئي من معنى كلي أو غيرها مما أصله الطبري في تفسيره، وهكذا يستثمر الإمام المقول في صياغة منظومات تصورية تعينه على الفهم والإفهام، ذلك إن:" المنظومة اللغوية توفر مداخل للمنظومات التصورية وتبدأ حينئذ المعالجة التداولية للقول. ولكن هذه المنظومة لا تكتفي بأنشطة المنظومات التصورية فهي تشرك منظومة مخصوصة – هي نظرية الذهن – قوامها حصرا القدرة على نسبة حالات ذهنية إلى الآخر، وهي قدرة لا غنى عنها في معالجة الأقوال. وعندئذ تصبح مهمة التداولية الكشف عن عملية التأويل التداولي"(٦١).

إن القدرة على معالجة الأقوال أو ما يصطلح عليه تداوليا بالكفاءة التداولية

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

Competence Pragmatique مؤصلة في الخطاب الفقهي والأصولي التراثي كما في الخطاب البلاغي أيضا، فهي المعينة على النفاذ إلى دقائق التفسير أو دقائق المعاني بحثا فيما هو وراء التفسير أو في معنى المعنى كما في بلاغة عبد القاهر الجرجاني، فالمعنى هو باطن اللفظ لا ظاهره، بل هو نظام أكبر من أن الحصر والعدد إذ أننا" نواجه توجيها خاطئا لمسألة المعنى، ويتجلى خطأ هذا التقدير حين ننظر فنجد بعض هؤلاء المحدثين يقسم الدلالة قسمين: الأول هو دلالة الألفاظ عند نزول القرآن، الثاني هو دلالة الألفاظ الإستعمالية في القرآن نفسه"(٦٢).

خـاتمة:

نخلص إلى أن البحث عن المعنى - بهذا المنظور الشامل - في التفسير لصيق بالممارسة التفسيرية نفسها، وأن إدراك المعنى يمر عبر استثمار النص وما يطرحه فضاؤه اللغوي والمعرفي والتاريخي، كما أن التأويل التداولي عند الطبري هو محصلة ما يلي:

- المعرفة العلمية الدقيقة بمدلولات الألفاظ ومراميها البعيدة والقريبة.
- ترجيح المقصود من المعنى عند تعدد التأويلات والاحتمالات بناء على أدلة نقلية أو عقلية أو لغوية.
- كل معنى لا يحتمله النص هو تأويل فاسد، وكل تأويل موافق لوضع اللغة ولسياق النص ولمأثور السلف تأويل صحيح.
- التصرف في اللفظ وفق مقتضيات منطق اللغة وما يقتضيه البيان القرآني تأويل تداولي.
- الغاية من التأويل فهم معنى النص وإيضاح المراد من لفظه وأسلوبه.
- التأويل التداولي معرفة كلية بالنص وحاجات الناس في الفهم" مستوعبا لكل ما بالناس إليه من الحاجة من علمه"

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

هوامش البحث

(١) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: ٤١.
(٢) نفسه، ص:٨٨.
(٣) أحمد الودرني، أصول النظرية النقدية، ص:٥.
(٤) علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: ٢٠٦.
(٥) جامع البيان، ٨/١.
(٦) أحمدالودرني، أصول النظرية النقدية القدية. ص:٥
(٧) جامع البيان ، ١٠/١.
(٨) نفسه،١٢/١.
(٩) جامع البيان، ٩/١.
(١٠) نفسه، ١/ ١٩٦، ١٩٧.
(١١) إدريس سرحان، التأويل الدلالي ـ التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة من المأول، ضمن التداوليات علم استعمال اللغة،ص:١٣٠،١٢٩.
(١٢) النساء/٥٩.
(١٣) جامع البيان،٥٠٦/٨.
(١٤) الإسراء/٣٥.
(١٥) جامع البيان ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة،١٤ /٥٩٢.
(١٦) إدريس سرحان، التأويل الدلالي ـ التداولي للملفوظات، ضمن التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي. عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠١١م.ص: ١٣٢.
(١٧) البقرة/١٦٧.
(١٨) جامع البيان:٣ / ٢٩٩
(١٩) نفسه،١٥/٢.
(٢٠) البقرة/٤٥.
(٢١) جامع البيان، ١٥/٢.
(٢٢) محمد محمد يونس علي ، المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط٢٠٠٧،٢م. ص:١٢.
(٢٣) جامع البيان،٢٠٧/٢.
(٢٤) نفسه، ٢٠٨/٢.
(٢٥) النساء/١١٠.
(٢٦) جامع البيان،٩/ ١٩٤.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

(٢٧) الأنعام/١٤٥.
(٢٨) جامع البيان،١٩٣/١٢.
(٢٩) الشافعي، الرسالة، ص: ٢٥.
(٣٠) الزركشي، البرهان في علوم القرآن،١٦١/٢.
(٣١) النساء/٧٧.
(٣٢) الجامع، ٥٥١/٨.
(٣٣) البقرة/٢٢٨.
(٣٤) جامع البيان،٥٣٥/٤.
(٣٥) نفسه،٥٣٥،٥٣٤/٤.
(٣٦) جامع البيان،٥٣٦/٤.
(٣٧) آل عمران/١٤٠.
(٣٨) جامع البيان،٢٤٢/٧.
(٣٩) نفسه ،١٩/٢.
(٤٠) البقرة/٢٣٠.
(٤١) جامع البيان،٥٩٩،٥٩٨/٤.
(٤٢) محمد أمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار علم الفوائد للتوزيع،٤١/١.
(٤٣) البقرة/٤٦.
(٤٤) جامع البيان،١٧،١٨/٢.
(٤٥) البقرة/٤٦.
(٤٦) جامع البيان،٢٣/٢
(٤٧) ينظر إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص:٢٨٧ وما يليها
(٤٨) الأعراف/١٢.
(٤٩) جامع البيان، ٣٢٣/١٢.
(٥٠) نفسه،٣٢٥/١٢.
(٥١) نفسه،٣٢٥،٣٢٦/١٢.
(٥٢) إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه. ص:٣٣٧.
(٥٣) البقرة/٣٠.
(٥٤) الجامع،٤٣٩،٤٤٠/١.
(٥٥) البقرة/٥١.
(٥٦) جامع البيان،٦١/٢.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

(٥٧) البقرة/١٨٨.

(٥٨) جامع البيان،٥٥٢/٣.

(٥٩) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون،٢١٧/١.

(٦٠) عبد السلام إسماعيلي علوي، تداوليات التأويل ضمن التداوليات علم استعمال اللغة.ص:٢٣٠.

(٦١) آن روبول جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ص:٧٦.

(٦٢) مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس ، لبنان ،(د ط ،د ت) ص:١٨٤.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١- أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

- تحقيق أحمد عبد الرزاق البكري وآخرون، دار السلام للطباعة والنشر مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
- تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة مصر، ط ٢(د ت)
- تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي،دار هجر للطباعة.

٢- أحمد الودرني، أصول النظرية النقدية، من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير نموذج الطبري، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ليبيا، ط١، ٢٠٠٦.

٣- إدريس مقبول الأسس الأبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه،عالم الكتب الحديث،الأردن، ط١، ٢٠٠٦.

٤-آن روبول وجاك موشلار التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني،دار الطليعة، لبنان،ط١، ٢٠٠٣.

٥- بدر الدين بن محمد عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث، مصر، ط٣، ١٩٨٤.

٦- حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠١١م.

٧- الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر،المكتبة العلمية، بيروت، (د ت، دط).

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

٨- علي الشبعان الحجاج والحقيقة والتأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط١، ٢٠١٠

٩- محمد أمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار علم الفوائد للتوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٠- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة،٢٠١٢.

١١- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

١٢- محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٧م.

١٣- مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، لبنان، (د.ط، د ت).